الأسس النفسية لتحقيق السلم

بقلم

زكريا إبراهيم

ماجستير فى الآداب

ليس بدعاً أن تُعَدّ الحرب أقسى محنة يمكن أن يُبتلى بها العالم . فإن الإنسانية طالما قاست من ويلات الحروب ، وطالما عانت من جراء ما يجىء مع الحرب من شرور ونكبات — ولكن طائفة من المفكرين قد ذهبت إلى الإعلاء من شأن الحرب فعملت على تمجيد الروح العسكرية ، ونادت بأن للحرب قيمة أخلاقية لا يمكن أن تُجْحَد . ولعل من واجبنا أن ننعم النظر فى هذا الرأى ، حتى نعرف لماذا يزعم البعض بأن الإنسانية لا يمكن أن تستغنى عن الحرب ، بل حتى نقف على هذا الطابع الأخلاقى الذى تنطوى عليه الروح العسكرية التى يمجّدها هؤلاء .

وليس من شك فى أننا جميعا نعرف حق المعرفة ما حاق بالإنسانية من أهوال الحروب ، فما زالت التجربة التى مرت بنا خلال الحرب العالمية الأخيرة عالقة بأذهاننا . وإذن فليس بنا حاجة إلى أن نكشف عن ذلك الجانب المظلم الذى لابد بالضرورة أن يظل عالقا بالحرب ، من حيث هى نشاط إنسانى أليم ، أو تجربة بشرية قاسية . ولكننا نودّ — فى القسم الأول من هذا البحث — أن نعرض لدراسة الدافع السيكولوجى للحرب ، حتى نتخذ من فهمنا لحقيقة هذا الدافع ، أساساً علمياً يمكن عن طريقه أن نجد حلا لمشكلة عملية هى مشكلة القضاء على الحرب ، وتحقيق السلم . وربما كانت المعرفة السيكولوجية أجدى على الإنسانية بكثير من البكاء على الحضارة الإنسانية المحطمة ، أو التحسر على الجهود البشرية الضائعة !

وهنا نجد أن دافع الحرب يحقق للإنسانية (فيما يرى فلوجل Flugel) أمورا أربعة : فهو يرضى أولا حبنا للمغامرة ونزوع البعض إلى المخاطرة ، ثم هو من جهة ثانية يعمل على زيادة الوحدة الاجتماعية وتقوية أواصر التضامن بين أفراد المجتمع

الواحد ، ثم هو من جهة ثالثة يحررنا من شواغلنا الخاصة وهمومنا الفردية ، وأخيرا نجد أنه يفتح أمامنا ميولنا العدوانية كثيرا من المنافذ (outlets for agression) .

أما من الناحية الأولى فإن الملاحظ أن الحرب (وبخاصة هذه الحرب الحديثة التي تشمل العالم بأسره) تفتح أمام الإنسانية آفاقا واسعة ، وتتيح للأفراد فرصاً غير منتظرة . وسواء كنا محاربين أم مدنيين ، فإن مجرى حياتنا إبان الحرب لا بد أن يتغير تغيراً تاماً . وإذا كانت حياتنا العادية تسير في الغالب على وتيرة واحدة ، دون أن تتخللها في العادة أحداث خطيرة ، أو مفاجآت غير مترقبة ، فإن حياتنا إبان الحرب تجيء مُشْبِعة لرغبتنا في المخاطر وحبنا للمجهول . وهكذا تكون الحرب فرصة للخروج عن حياة العمل العادي الرتيب ، أو أسلوب الحياة الممل ، إذ يتاح لنا أن نشهد كثيراً من الأحداث الخطيرة ، وقد يتاح لنا أيضا أن نساهم في تحقيق بعض الوقائع الهامة ، أو تنفيذ بعض المقاصد الكبرى .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذه الأحداث الخطيرة التي قد نشارك فيها ، من شأنها أن تتطلّب منا استجابة قوية شاملة ، فتتضافر سائر قوانا الذهنية والجسمية ؛ وهو ما قد لا يحدث كثيراً في حياتنا العادية الرتيبة ، حينما نكون بصدد عمل آليّ لا يتطلب أكثر من تنشيط بعض العادات . فنحن إبان الحرب نشعر جميعا بأننا قد ندعى لتحقيق عمل نبيل ، أو قد يهيب بنا الوطن أن نقوم بدور من أدوار البطولة ، فنسجل بفعلنا حدثاً خالداً ربما تتناقله كتب التاريخ ، وقد لا يقل شأنا عما طالما تحدثت بذكره روايات المغامرات وأساطير الأقدمين . وهكذا تتيح لنا الحرب فرصاً نادرة قلما يظفر بها الرجل العادي في ظروف السلم الطبيعية ، أو في حياته الخاصة الاعتيادية .

وإن هذه الحاجة إلى المغامرة لتظهر بوضوح أكثر ، عند بعض النفوس القوية التي تأبى أن تجعل شعارها : « الأمن أولا » . وليس من شك في أن الإنسانية في حاجة دائما إلى شيء من « المخاطرة » ؛ وربما كان تقدم الإنسانية المطرد ، وليد هذه الروح القوية التي طالما تعشقت « المخاطرة » . وليس معنى هذا أننا ننكر ما للخوف من قيمة سيكولوجية ، ولكننا نريد هنا أن نؤكد الدور الذي تحققه « روح المخاطرة » في الحياة الإنسانية على وجه العموم ، وكما تبدو عند المخاطرين من رائدي الإنسانية على وجه الخصوص ... وإننا لنرضى هذا النزوع إلى المخاطرة ، في حياتنا العادية إبان السلم ، بالالتجاء إلى ضروب عنيفة من الرياضة ، أو عن طريق التقمص

الوجداني أثناء مشاهدة الروايات البوليسية أو قراءة كتب المغامرات . أما إبان الحرب فإننا نجد في الأحداث الخطيرة التي تمر بنا كل يوم ، مادة خصبة لإشباع هذه الحاجة إلى المخاطرة ، وبخاصة في ظروف الحرب الحديثة التي يتسع مداها فيشمل المدنيين أنفسهم ، كما هو الحال أثناء الغارات الجوية .

والواقع أن الإنسان كثيراً ما يشعر بأن حياته راتبة يشيع فيها السأم ، ومن ثم فإنه سرعان ما يرحب بكل ما قد ينتشله من هذه الحياة الراتبة المملة . وإن محبي الرحلات ليعرفون جيداً أن الرحلة الشاقة التي تقاسي فيها من التعب أقصاه ، إنما هي في الوقت نفسه تلك التي ترتاح لذكرها ، ونود أن نرجع بذاكرتنا إليها . وكم من أناس يخدون لذتهم القصوى في أن يقدموا على عمل خطير ، أو أن يقوموا برياضة عنيفة تستهدف فيها حياتهم للخطر ، كأنما هم يضعون حياتهم وموتهم في كفتي ميزان ، أو كأنما هم يريدون أن يشحذوا شخصياتهم على قوى الطبيعة الحادة ! وهكذا يندفع الناس بسهولة نحو الحرب : فإن الحرب محنة أليمة تُختبر فيها رجولة الأمم ، بعد إذ أفسدتها تلك المدنية الحديثة التي لا تخلو من نعومة ورفاهية . وإن الناس ليشعرون بالحاجة إلى المخاطرة ، فتراهم في الظروف العادية يقبلون على الرياضات العنيفة (مثل تسلق الجبال والتزحلق على الجليد وسباق السيارات وما إلى ذلك) لكي يخرجوا عن حياتهم الناعمة السهلة التي لا أثر فيها للمغامرات . ولعل هذا هو ما يدفع بالبعض إلى الاعتقاد بأن رياضة كالصيد أو ككرة القدم أسمى بكثير من لعبة التنس ، لأن احتمال الإصابة في هذه أقل ، وبالتالي فإنها لا تحقق ضربا أسمى من المخاطرة .

وقد لاحظ بعض الباحثين — من جهة أخرى — ما للألم من أهمية كبرى في الحياة الإنسانية . فهم يقولون إن الإنسان لا يستطيع أن يستمتع بحياته تماما ، أو أن يستفيد مما لديه من قوى ، إلا إذا عمل في سبيل أهداف تقتضي هي نفسها ضربا من « الألم » . فالإنسان — في زعمهم — يحتاج إلى أن يقاسي شيئا من الألم ، أو أن يعاني ضربا من « التضحية » في سبيل الوصول إلى غاية قصوى أو هدف بعيد . ومن هنا فإن الحرب تشبع في النفس الإنسانية نزوعاً شبيهاً بما تشبعه « التضحية » أو « الزهد » : (ascetism) ولكننا إبان الحرب قد نغالي في قيمة « الألم » حتى ليصبح هو نفسه غاية في ذاته . فنندفع إلى الاعتقاد بأن « البندقية في حد ذاتها أفضل من الزبدة » ! وقد نتصور ما سوف يحيق بالعدو من محن وآلام . فنجد لذة قصوى في توقيع العقوبة عليه ، ونستمتع بما ينزل به من نكبات ، بعد ما مر بنا من تجارب وأهوال .

وإن الناظر إلى ما تعانيه الأمة الواحدة من المحن والأهوال ، إبان الحرب ، ليعجب لهذه القدرة الهائلة على « الاحتمال » . ولكن ما يبرر احتمال كل تلك الآلام إبان الحرب ، إنما هو أن الحالة « الراهنة » لا يُنظر إليها فى ذاتها ، بل فى ضوء المستقبل الذى سوف يترتب على الحالة الحاضرة . وما دام « الحاضر » لا يوجد إلا باعتباره « اتجاها » نحو « المستقبل » ، فليس بدعاً أن يُضَحّى بالجيل الحاضر فى سبيل جيل لم يوجد بعد . ولا عجب إذا ذهبت أنفس كثيرة إبان الحرب ، فى سبيل تحقيق مستوى أفضل من المعيشة !

أما من جهة ثانية ، فإن الحرب أداة فعالة لتحقيق « الوحدة الاجتماعية » (social unity) . وليس من شك فى أن أفراد الأمة الواحدة — إبان الحرب — يتجهون اتجاها واحداً ، ويترعون إلى تحقيق هدف واحد ، ويسعون جميعا نحو غرض مشترك . وإذا استثنينا قلة نادرة تعمل لحساب العدو ، فإن فى وسعنا أن نقول إن ثمة شعوراً بوجود هدف واحد يعمل الجميع على بلوغه . وهذا الشعور بالغرض المشترك من شأنه أن يحقق ضربا من التوافق الاجتماعى الذى قد يصعب الوصول إليه إبان السلم ، حينما يكون انشغال الفرد بمسائله الشخصية والمهنية والمحلية ، طاغيا على أى اهتمام آخر مما يشترك فيه الناس جميعاً . والواقع أن وجود « هدف مشترك » هو كما قال مكدوجل ، من أقوى العوامل التى تؤدى إلى توحيد الجماعة . وهكذا تكون الحرب عاملا قويًّا فى سبيل تحقيق ضرب من التآلف الوثيق فيما بين الأفراد ، لأنها تصهر مصالحهم فى بوتقة واحدة .

وفضلا عن ذلك فإن فكرة « الوطن » تصبح إبان الحرب أقوى ما تكون ، لأن كل أمة تشعر عندئذ بما لبلدها من تقاليد قديمة أو تاريخ حى ، لا بد من العمل على الاحتفاظ به تراثاً خالدا يتسلمه جيل بعد جيل . ومن هنا تصبح تربة الوطن ، وموقعه ، ولغته ، وآدابه ، وتقاليده ، وآثاره ، يصبح هذا كله رمزاً مقدساً يعبر عن وحدة الأمة : فنشعر بأن أبطال الماضى أحياء فى الحاضر ، ونعمل جميعا على تخليد تراثنا القومى . ولا تكون حياتنا — إبان الحرب — هى وحدها المهددة بالخطر ، بل ولا حياة المواطنين الذين يعيشون معنا ، بل نشعر جميعا بأن « كيان » الأمة فى خطر ، وهو هذا « الكيان » الذى يربطنا بآبائنا وأسلافنا ممن انحدر إلينا عنهم تراث الوطن المجيد . ومن جهة أخرى ، فإن الحرب تعمل على تقوية الوحدة الاجتماعية ، لأنها تولد بين الأفراد والجماعات والطبقات (فى الأمة الواحدة) شعوراً بالتضامن

يقوم مقام الشعور بالتنافس . وهكذا يندمج الأفراد فى عمل مشترك . فيشعر كل فرد منهم بأنه يعمل فى سبيل الغرض المشترك . كما يعمل أفراد الفريق الواحد فى سبيل تحقيق النصر لفريقهم . أما فى الظروف العادية إبان السلم . فإن اختلاف المصالح قلما يسمح بوجود هذا « التضامن » . فى وسط الخلافات التى تتقاسم المجتمع وما يقوم بين الأفراد من تنافس وتشاحن .

ولعل من أفضال الحرب على الجماعة أيضا أنها تجعل الأمة فى حاجة إلى خدمات كل فرد . فيكون كل مواطن سعيداً بأن يقوم بالمهمة التى يُعهد بها إليه . مهما كانت ضئيلة . وهكذا يشعر الفرد بأن المجتمع فى حاجة إليه . وأنه يقوم بدوره فعلا فى سبيل تحقيق الغرض المشترك . وهنا نجد أنفسنا إزاء عاملين . أحدهما سيكولوجى . والآخر اقتصادى . فمن جهة يلاحظ أن الجميع يحققون هدفا واحداً . فيشارك كل منهم فى تحقيقه وفقا لاستعداداته وقدراته ووضعه الخاص . ومن جهة أخرى تجىء الحرب كوسيلة من الوسائل الفعالة للقضاء على مشكلة اقتصادية خطيرة ألا وهى مشكلة البطالة . إذ تُعطَى لكل فرد من أفراد المجتمع فرصة للعمل . والصلة وثيقة بين هذين العاملين (السيكولوجى والاقتصادى) لأن ما ينشط الأداة الاقتصادية فى الأمة إنما هو الظرف الخاص الذى تجتازه إبان الحرب .

وثمة عامل سيكولوجى آخر هو على جانب كبير من الأهمية : فإن من شأن الحرب أن تجعل « التناغم » سائداً بين سائر ضروب النشاط لدى الفرد . من حيث أنها تخفف من حدة التوتر الموجود بين الإنية ego من جهة . والذات العليا Super-ego من جهة أخرى . بل نظراً لأنها تعمل على رفع هذه الإنية إلى مستوى تلك الذات العليا . وليس من شك فى أن مشاركة الفرد فى هدف اجتماعى أسمى . وتقمصه لشخصية المجتمع الأكبر . فضلا عن قيام التعاون محل التنافس . وشعور الفرد بأن المجتمع فى حاجة إليه فعلا ؛ كل هذا من شأنه أن يولد فى الذات مزيجا عجيبا من التواضع والكبرياء . مما يجعل « الأنا » تخضع للذات العليا عن طواعية واختيار . فيكون الفرد مستعداً للتضحية بذاته فى سبيل بلاده — وهنا يظهر بوضوح الطابع الجوهرى الذى يجعل للحرب صبغة خلقية . وهو ما يجعل للحرب — على الرغم من كل ما تنطوى عليه من فظائع وأهوال — قيمة خلقية قد لا تقل فى نبلها من بعض الوجوه . عن أسمى ضروب النشاط الإنسانى إبان السلم(١) .

(١) "The Year Book of Psybo-Analysis.", vol. 2, 1946. J. C. Flugel: "The problem of war and peace." P, 211—213.

والواقع أن الحرب كثيراً ما تكون مناسبة تظهر فيها التضحيات النبيلة وضروب البسالة النادرة ، مما يكشف عن بطولة جليلة قلما تظهر إبان السلم . وهكذا تكون المحنة التي يجتازها الوطن عاملا قوياً يستثير أسمى الحوافز وأرفع البواعث . أعني تلك المشاعر « التزيهة » désintéressées التي تجعل الفرد يحيا مع مواطنيه وأسلافه الأقدمين حياة واحدة تشيع فيها روح قومية واحدة . وإن القيم لتتغير إبان الحرب . حتى لقد يحسب الفرد أن كل شيء مباح بإزاء العدو . ما دام الفرد لا يعمل لنفسه وإنما هو يعمل لوطنه . كأن نزاهة المقصد كافية لتنزيه أي فعل ! ولعل هذا هو ما حدا بفيلسوف مثل رنوفييه إلى أن يقيم تفرقته المشهورة بين ما سماه « أخلاق السلم » و « أخلاق الحرب » . في السلم مثلا يكون القتل جريمة . وأما إبان الحرب فإن قتلك للعدو الذي يهاجمك يكون عملا نبيلا يستوجب الدفاع عما تقدسه . ومعنى هذا أن الحرب تكسب « القتل » قيمة خلقية ، لأننا بإزاء ظروف خاصة تغير من طبيعته وتجعل منه عملا آخر مختلفاً كل الاختلاف (١) .

أما من جهة ثالثة فإن الملاحظ أن الحرب تخرج بنا عن حدود إنيتنا لكي تمتد بنا إلى مجال « الذات العليا » ومن هنا فإن مشاغلنا الفردية لا بد أن تتضاءل وتصغر ، بإزاء ما يقلق الوطن وما يشغل الجماعة . وهكذا تصبح همومنا الخاصة ومسائلنا الفردية تافهة ضئيلة بالقياس إلى الأحداث الكبرى التي تمر بالمجتمع ، والأهوال العامة التي تجتازها البلاد . وتبعا لذلك فإن « القلق » الفردي لا يعود شيئا هاماً بالنسبة إلى الخطر المشترك الذي يتهدد كيان الأمة بأسرها . وفضلا عن ذلك ، فإن الفرد لا يجد من جهده أو وقته متسعاً للتفكير في أموره الخاصة ، بينما تنزل بوطنه المحن ، وتحل ببلاده ويلات الحرب .

هذا إلى أن الانشغال بالمشكلة الاقتصادية يضعف أو يقل ، نتيجة لانعدام مشكلة البطالة أو التعطل ، كما أن الحرب تقلل من حدة الفوارق بين الطبقات ، نظراً لأن الأفراد جميعاً يشتركون في حركة اجتماعية واحدة ، فلا يكون ثمة أثر للفوارق الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد . والواقع أن الحرب قد تكون سبباً في الحد من مزايا الطبقات ، والتقليل من الفوارق بين الأفراد ، مما قد يترتب عليه تغيير كبير في النظر إلى القيم القديمة . ومن هنا فإن شأن الحرب أن تقيم بين الأفراد ضربا

(١) D. Parodi: Extrait d'une étude intitulée, "La Guerre et la Morale," publiée dans la "Revue de Métaphysique et de Morale,", mars 1906.

من « المساواة » ، وإن كان ذلك إلى حين .

وبالإضافة إلى هذا كله ، كثيراً ما تحررنا الحرب من بعض القيود التى تفرضها علينا الحياة العادية إبان السلم . والسر فى هذا أنها تخفف من رقابة « الذات العليا » فتعطينا فرصة للتمتع بما قد لاتسمح به الظروف فى الأحوال العادية . وهكذا تحطم الحرب بعض القيود اللامعقولة التى تحد من حريتنا ، فتسمح لنا بأن نستمتع بدائنا اللاشعورية « Id » (بما فيها من دوافع غريزية عمياء) ، دون أن يصحب ذلك أى شعور بالإثم أو الذنب .

وأخيراً نلاحظ أن الحرب تفتح أمامنا منفذاً لكل نزوع عدوانى . وقد ذهب كثير من الباحثين إلى تعليل الحرب عن طريق هذه الميول العدوانية التى لا يملك الفرد أن يشبعها تماماً إلا عن هذه السبيل . والواقع أن العدوان الفردى لا يمكن أن يظهر فى صورة صريحة ، لأنه يصطدم عندئذ بالقانون ، أو التقاليد الاجتماعية ، أو برقابة الذات العليا نفسها . وأما إبان الحرب ، فإن العدوان يجد مخرجاً طبيعياً يقره المجتمع ، ويجىء متناغماً مع الذات (ego-syntonic) ، ومن ثم يكون الفرد على استعداد تام لأن يستغل ما لديه من نزوع عدوانى ، مع ما تقتضيه مصلحة الجماعة . وسواء أكان فى هذا الرأى مغالاة أم لا ، فإن من المؤكد أن الحرب تشبع فى « الفرد » نزوعه العدوانى .

وعلى أية حال ، فإنه مهما كانت درجة هذا العدوان وأيا ما كان مصدره ، فإنه مما لا نزاع فيه أن الحرب تكسب « العدوان » طابعاً أخلاقياً . وعلى قدر مايكون اتصالنا بالعدو ، نكتسب جميعاً ما يمكن تسميته بحق (فى ظروف أخرى) باسم « الذات العليا المجرمة » (a criminal superego) . ومن هنا لانعود ننظر إلى القتل أو التدمير أو التخريب ، إلا على أنها أفعال مشروعة ، بل أعمال نبيلة ، بإزاء العدو الذى نحاربه . وهكذا يحدث انقلاب تام فى القيم جميعاً ، فتصبح أفظع الجرائم أسمى ضروب البطولة ، وتصير أبشع الأفعال أرفع الفضائل . ومعنى هذا أن الحرب تكفل لنا ما يمكن أن نسميه باسم التبرير الخلقى للسلوك غير الاجتماعى (فى أعلى صوره) . ولعل هذا هو السر فى اعتقاد كل طرف من الطرفين المتحاربين بأنه إنما يعمل فى سبيل غاية نبيلة ومقصد أسمى ، بينما يدافع خصمه عن الشر المطلق والخطأ الصراح . ومهما كان غرض أحد الطرفين مجافياً للمنطق أو مضاداً للحق ، فإن كلا منهما يظل عاجزاً عن فهم الطرف الآخر ، معتقداً اعتقاداً جازماً بأن

عدوه يحارب فى سبيل البغى والعدوان ، بينما يدافع هو عن الحق والخير . وإذن فإن فى الحرب « نسبية أخلاقية » عجيبة ، من شأنها أن تجعل كل طرف عاجزاً تماماً عن تفهم القيم الأخلاقية التى يدافع عنها الآخر . ولكن المهم هنا هو أن الحرب تكوّن من السلوك الأخلاقى والميول العدوانية مزيجا فريداً فى نوعه ، فتكون بذلك وسيلة عجيبة لعمل الشر مع الشعور فى الوقت نفسه بأن ما نعمله إنما هو الخير ! وهكذا يكون الشر الذى يقترفه الإنسان إبان الحرب ، مقروناً بشعور صاحبه بتبرير أخلاقى عجيب .

ولما كانت كل نوازعنا العدوانية فى الحرب ، إنما تتجه نحو « العدو » ، فإن الفرد يتحرر تقريباً من كل نزوع عدوانى نحو غيره من أفراد جماعته . ومن هنا يسود التعاون بين أفراد الوطن الواحد ، وتتجه ميولهم العدوانية نحو العدو وحده . وإذ يسود الإخاء بين المتحاربين من أفراد البلد الواحد ، ينصب عدوانهم ككل نحو الخصم المشترك .

أما نظرة المحاربين إلى « العدو » فإنها تقوم على أساس « الإسقاط » : ذلك لأننا نخلع على العدو كل رذائلنا ، وسائر ميولنا العدوانية ، فننظر إليه على أنه وحش كاسر لا يرعى حرمة ولا يعرف عدالة ، ونزعم أنه هو البادئ بالحرب ، وأن لولا أطماعه لما نشب القتال ... إلخ . أما نحن فلم نكن نبغى دخول الحرب ، ولم يكن التجاؤنا إلى القتال إلا دفاعاً عن النفس ... إلخ . وحتى الألمان واليابانيين ، الذين يسود عندهم اعتقاد راسخ بأنهم خير الشعوب ، وأن من حقهم أن يسودوا العالم باعتبارهم أسمى الأجناس ، نراهم هم أنفسهم إبان الحرب ، يُسْقِطون على أعدائهم نوازعهم العدوانية ، ويخلعون عليهم كل صفات البطش والطغيان ، فيصورونهم بمظهر المعتدى ويضفون عليهم أبشع صور العدوان !

شروط السلم :

إن كل المحاولات التى بذلت حتى الآن من أجل القضاء على الحروب ، لا تعدو اتجاهين : أحدهما أخلاقى والآخر سياسى . فمن الناحية الأخلاقية يذهب كثير من محبى السلام إلى ضرورة تغيير ما فى النفوس ، توطئة للقضاء على أسباب الخصومة والعدوان . وإن أصحاب هذا الاتجاه ليعمدون إلى إظهار ما تنطوى عليه الحرب من فظائع لا مبرر لها ، وما يجىء معها من محن لا طائل تحتها . وهم يقولون

إن الحرب تقوم على أساس التعارض المطلق ، مع كل ما اصطلح عليه من قيم أخلاقية . وأما من الناحية السياسية فإن الرأى يتجه إلى ضرورة إعادة تنظيم العلاقات الدولية تنظيما محكما يكفل عدم قيام المنازعات بين الدول ، أو على الأقل حل المشاكل الدولية دون الالتجاء إلى السلاح .

بيد أن فى استطاعتنا — عن طريق علم النفس — أن نعيد النظر إلى هذين الاتجاهين على أساس ما قدمنا من ملاحظات سيكولوجية ، مع الاستعانة بمنهج آخر نستلهمه مما أتينا على ذكره فى القسم الأول من هذا البحث . أما هذا المنهج الجديد فهو محاولة يراد بها تحقيق المنافع التى تجىء مع الحرب ، دون الالتجاء إلى هذه الأداة التدميرية التى هى الحرب نفسها — ولقد كان وليم جيمز أول من فطن إلى هذا الاتجاه ، حينما حاول (فى مقال كتبه سنة ١٩١٠) أن يهتدى إلى « معادل أخلاقى للحرب » : (Moral equivalent for war) :

أما الاتجاه الخلقى فى الحكم على الحرب فهو فيما يظهر قليل الجدوى ، لأنه فى الحقيقة يتناسى الأصل فى الحرب . والواقع أن القيم الأخلاقية التى يهيب بها أصحاب هذا الاتجاه من أجل إظهارنا على ما فى الحرب من سوء ، إنما هى القيم الأخلاقية « الفردية » ، فى حين أن الملاحظ إبان الحرب أن الفرد يسلم ضميره الفردى للجماعة . ومعنى هذا أننا فى حاجة إلى أن نحول اهتمامنا الخلقى من «الفرد» إلى « الجماعة » حتى نجعل للدولة (أو الجماعة) أخلاقا . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إنه من الأهمية بمكان أن نحيل إلى « الدولة » تلك الالتزامات الأخلاقية التى طالما وضعناها على عاتق «الفرد» . وليس من شك فى أن هذه مهمة شاقة تستلزم جهداً كبيراً قد يكون من الخطأ التقليل من صعوبته .

... إننا جميعا نقر — منذ زمن بعيد — بأن من واجب الفرد أن يحد من أنانيته ، وأن يضحى بشىء من أطماعه الخاصة ، فى سبيل مجتمعه الذى يعيش فيه ، على أساس أن هذه الأنانية البالغة تتعارض مع الحياة الاجتماعية الصحيحة . ولكننا لم نقتنع بعد بضرورة الحد من أنانيات الشعوب ، بل لقد كنا إلى عهد قريب نظن أن وضع أى حد أمام أطماع الأمة ، أو أمام أنانية الدول العمياء ، إنما يتعارض مع مجد الوطن وشرف الأمة ، كأن عظمة الشعوب لا تقاس إلا بمدى عدوانها على الآخرين ، أو كأن مجد الأمة لا يقوم إلا على أنقاض غيرها من الأمم ، وهكذا كان « الإيثار » فضيلة بالنسبة إلى الأفراد ، وعاراً بالنسبة إلى الشعوب ، لأن ماينظم

العلاقات بين الشعوب إنما هو « النزعة اللا أخلاقية » .

ومن جهة أخرى يلاحظ أننا قد ألفنا أن نردّد القول بضرورة العمل على تهيئة أسباب الرفاهية للدولة . وكان الأجدر بنا أن نضع نصب أعيننا رفاهية الأفراد الذين تتألف من مجموعهم الدولة . وإذا صح ما تقول به النزعة الديموقراطية من أن الهدف الأسمى الذى تعمل الدولة جاهدة فى سبيل الوصول إليه ، إنما هو توفير أسباب « الحياة الطيبة » لمواطنيها من الأفراد ، فربما يكون فى استطاعتنا أن نتفادى الكثير من المطالب الخيالية والأطماع الكاذبة والأمجاد الزائفة ، إذا جعلنا رائدنا إصلاح حالة « الفرد » وتحسين أسلوب حياته . فهذه النظرة قد يكون من شأنها أن تضع حداً لهذا الخيال الجامح الذى يسيطر على بعض الأمم ، فيجعل سياستها قائمة على أساس غير معقول هو وليد الأطماع الدولية العريضة .

وفضلا عن ذلك ، فإن نظرتنا إلى الشعوب الأخرى قد تقل قسوة ، وتخف حدة ، لو أننا فكرنا فى الأفراد الذين تتكون منهم هذه الشعوب ، بدلا من أن نفكر فى « الدول » التى تضمهم . والواقع أن هؤلاء قد لا يختلفون عنا ، وربما نسر بمعرفتهم أو التعرف إليهم . فنحن إبان الحرب لا نشتبك مع أفراد ، بل مع « جماعة معادية » وما يجعلنا نعد أعداءنا أفراداً أشراراً قد أشربوا حب العدوان ، إنما هو أننا ننظر إليهم نظرة شاملة قوامها فكرة مجردة . وربما كانت قدرتنا على تكوين هذه الفكرة المجردة ، فكرة « العدو » أو « الجماعة المعادية » ، مسئولة إلى حد غير قليل عن بعض أخطار الحرب . بيد أننا لو تذكرنا دائماً أن الأمم (سواء أكانت أمتنا أم غيرها من الأمم) إنما تتكون من أفراد ، وأن هؤلاء الأفراد مخاوفهم وآمالهم ورغباتهم ، وأن مثلهم كمثلنا تماماً عند التألم أو السرور ، فإننا عندئذ قد نحجم أو نتردد قبل أن نندفع فنسلم ضميرنا الفردى للجماعة . بل قبل أن نتقدم لكى نرتكب تلك الكبائر التى تبررها الحرب « تبريراً أخلاقياً » ، وإن لم يقبلها الضمير الفردى .

وصفوة القول أنه من الأهمية بمكان أن نطبّق على الدولة فكرة « المسئولية الخلقية » من ناحية ، كما أنه لا بد من أن نؤكد قيمة الفرد الكبرى من ناحية أخرى . وبدون هذا الشرط المزدوج لا يمكن أن نخطو خطوة واحدة فى سبيل تحسين العلاقات السياسية فيما بين الأمم والشعوب .

أما الاتجاه السياسى فى القضاء على الحروب ، فهو يتمثل بوضوح فى تلك الجهود التى بذلت من أجل حل المنازعات الدولية حلا سلمياً ، مع محاولة التوصل إلى

إيجاد قيادة سياسية عامة تهيمن على العالم بأسره . وقد نادى المؤتمر الدولى للصحة العقلية بأنه لاسبيل إلى تحقيق سلم عالمى ، إلا بتقوية فكرة « المواطن العالمى » حتى يؤمن قادة الشعوب بأنهم يوجهون العالم ، قبل أن يوجهوا شعبا بعينه أو أمة بالذات. ولسنا نريد أن ندخل فى مناقشة سياسية تخرج بنا عما نحن بصدده ، ولكننا نعتقد أن هيئة الأمم — فى هذه الآونة بالذات — أحوج ما تكون إلى فهم المعنى الحقيقى للرسالة التى قامت من أجلها حتى تستطيع أن تمضى فى تحقيق الغاية التى دعيت للنهوض بها . والواقع أن هذه الهيئة لا تقوم إلا على أساس « الثقة » ، فلا بد لها من أن تعمل على اكتساب ولاء « الأفراد » ، قبل أن تحرص على مراعاة أى اعتبار سياسى آخر . وليس من شك فى أن أية « منظمة دولية » لا يمكن أن تقوم إلا إذا أحاطها الأفراد فى سائر أنحاء العالم بكل ثقتهم وولائهم وحماستهم وتقديرهم . وإذا كنا جميعاً قد ألفنا (من قديم الزمن) أن نولى أمتنا كل ثقتنا وإخلاصنا ، فإن من الواجب أيضاً أن نتعلم كيف نخلص لهذه « المنظمة الدولية » بحيث نهبها جانبا كبيراً من ولائنا وثقتنا . ولا بد من أن يعتاد الأفراد — فى سائر أنحاء الأرض — أن يوجهوا جانبا من إخلاصهم إلى هذه الهيئة الكبرى التى تعدو طور الوطن ، وتسمو فوق أية حدود إقليمية ضيقة .

بيد أن هذا الأمل بعيد التحقيق ، إن لم تتخذ خطوات جدية فى سبيل تقوية « هيئة الأمم » ، حتى تصبح وطنا أكبر يدين له بالولاء كل مواطنى العالم من مختلف الشعوب . وربما كان من الخير للوصول إلى هذه الغاية ، أن نعمل على تهيئة أسباب البقاء لهذه المنظمة الدولية ، حتى تقوم بوظيفتها على نحو فعال ، كما تقوم الدول المختلفة بوظيفتها الخاصة فى دائرتها المحدودة . وإذا كان لكل دولة علم خاص يمثلها ، فقد يكون من الخير لهيئة الأمم أن تحرص على أن يُمثَّل علمها الخاص جنبا إلى جنب مع سائر أعلام الدول ، بحيث يعتاد كل شعب أن يرى علمه يحمل شعاره الخاص وشعار هيئة الأمم جنبا إلى جنب .

وإذا كانت كل دولة تكفل للأفراد رعاية مصالحهم الاقتصادية والسياسية ، فإن من واجب هيئة الأمم أن تعمل على تحقيق هذه الأهداف فى نطاق أوسع ، مستعينة بما لديها من قوة عسكرية أولا ، وما بين يديها من إمكانيات اقتصادية واسعة ثانياً . وربما كان الواجب الأول لهيئة الأمم ، أن تشعر سائر الأمم بأنها قادرة على أن تصدر أحكاماً تكفل هى بتنفيذها ، وردع الخارجين عليها ، بحيث تكون

كفيلة برد كل عدوان ، وقمع كل طغيان ، كما تكون فى الوقت نفسه أداة لزيادة الرفاهية الاقتصادية ، وتحقيق الخير العام . وهكذا تستطيع هذه المنظمة الدولية أن تكتسب ثقة المواطنين فى سائر أنحاء الأرض .

وما دمنا لا نريد أن نذهب إلى حد القول بإقامة حكومة عالمية موحدة تقوم على أنقاض الأمم المختلفة ، فلا بد لنا من أن نسلم بضرورة ولاء الأفراد لأوطانهم ، بشرط أن يكون هذا الولاء لاحقاً أو خاضعاً لولائهم لهذه الهيئة الكبرى التى تخضع لها أممهم . وليس هذا أمراً مستحيلا : فإن ثمة مراتب مختلفة من الولاء تقوم فى عقول الأفراد : نحو الأسرة والمدرسة والمدينة والأمة والامبراطورية ... إلخ . وليس هناك ما يبرر انتهاء هذه المراتب عند «الوطن» ، دون الامتداد إلى مرتبة أخرى أسمى وأعلى . بيد أن من الواجب أن نعمل جدياً على الوصول إلى هذه المرتبة ، حتى يشعر الفرد شعوراً صادقاً بولاء حقيقى نحو ذلك المجتمع الأكبر الذى هو الوطن العالمى أو الهيئة الدولية الكبرى . ويجب أن يشعر الفرد بأن مصلحة وطنه ، ومصلحة هذه الهيئة الكبرى ، ليستا على طرفى نقيض ، بل هما مرتبطتان تمام الارتباط . كما ينبغى أيضا أن تنتهز كل فرصة لتعليم سائر أفراد الشعب الواحد أن الأمم المتحدة جميعاً ، إنما تتعاون كلها فى سبيل تحقيق هدف واحد ، هو النهوض بالرسالة الكبرى التى تفرضها الحياة الإنسانية المشتركة . وفضلا عن هذا كله ، لا بد من أن تقف كل أمة على ما يبذله غيرها من الأمم فى هذا المضمار من جهود يراد بها المشاركة فى تحقيق تلك الرسالة .

وربما كانت الصعوبة الكبرى التى قد تقف حائلا فى سبيل قيام مثل هذه الهيئة الدولية العالمية إنما هى ما لكل أمة بعينها من تقاليد خاصة ترتبط بتاريخها الحربى ارتباطاً وثيقاً . وهنا نرانا فى حاجة إلى تعديل شامل فى نظرنا إلى الأمور : فإن من الضرورى أن تتعلم الأمم كيف تفتخر بأمجاد أخرى غير الأمجاد العسكرية ، سواء أكان ذلك فى مجال العلم أم الأدب أم الفن أم الصحة أم التربية أم الخدمة الاجتماعية ... إلخ . ولن يكون هذا إلا إذا ساهمت كل الشعوب فى حركة «التقدم» الكبرى ، محاولة أن تستفيد من تراث الإنسانية العظيم الذى خلفته الأجيال السابقة . ولن نكون جديرين بهذا التراث المجيد إلا إذا عملنا على استثماره والاستفادة منه فى سبيل خير الإنسانية العام .

حقاً إن الحرب الأخيرة قد خلفت لنا مشكلة كبرى لا سبيل إلى درء خطرها

تماماً : ألا وهى انعدام الثقة بين الحلفاء أولا ، والفشل فى تحقيق صلح حقيق مع الأعداء ثانيا . ولكن من واجب الأمم أن تعمل جميعا على إعادة بناء ذلك الصرح المحطم بتوحيد الجهود وتوثيق صلات التعاون . وإذا كان العالم اليوم أحوج ما يكون إلى أن يعاد بناؤه من جديد ، فلا بد إذن من أن يتعاون الحلفاء والخصوم فى هذه المهمة الشاقة التى تقتضيها عملية « إعادة بناء العالم » . ولن تصبح عقليات الشعوب متشابهة (كما يقول كار Carr) إلا إذا اشتركت كلها فى عمل واحد ، بحيث تجتاز جميعاً تجارب واحدة . وما من سبيل حقيق إلى إيجاد سيكولوجيا « التعاون » إلا عن طريق التعاون فعلا ، بدلا من الاقتصار على الدعوة إلى التعاون ... ومعنى هذا أن السبيل الأوحد إلى تحقيق التآلف بين تلك الأسر المتفرقة فى أوربا ، إنما يتهيأ لمن يستطيع أن يوجه نداء واحداً مشتركا إلى شباب أوروبا فى كافة الدول ، من أجل المساهمة فى الخدمة معاً ، للوصول إلى هدف واحد يسمو فوق سائر الخلافات الدولية . وما أصدق بلوندل حين يقول : « إن دماً واحداً هو الذى يسرى فى عروق الجسم البشرى بأكمله ، وتراثاً واحداً هو الذى تحاول الإنسانية بأكملها أن تستثمره ، فالإنسانية إنما تتقدم بجملتها ، والحضارة البشرية العامة إنما تنمو كما ينمو الجسم العضوى الواحد » (١) .

المعادل الخلقى للحرب :

لقد رأينا أن الحرب — بما فيها من أخطار وأهوال — تتطلب من الأفراد ضروبا عجيبة من المخاطرة والتضحية والبطولة ، كما أنها تسبب نوعاً من الترابط الاجتماعى الوثيق فتؤلف بين الأفراد وحدة قومية متماسكة ، فضلا عن أنها تضمن للأفراد إشباع ميولهم العدوانية فى مجال تبريرى مقبول . ولكن أليس من سبيل إلى تحقيق كل هذه الحاجات دون حرب أو سفك دماء ؟ وبعبارة أخرى نقول : أليس من الممكن أن نجد « معادلا أخلاقيًّا » سلميًّا للحرب ؟

هنا نلاحظ أن من شأن الحرب أولا أن تحل على نحو موفق مشكلة عسيرة طالما عانت منها وبلاتها الشعوب فى أيام السلم ، ألا وهى مشكلة « البطالة » : ذلك لأن الحرب تحشد سائر الأيدى العاملة ، فلا يجد الفرد نفسه عاطلا ، بل يشعر بحاجة بلاده إليه ، ويجد لذة فى أن يحقق لوطنه خدمة قد تقرّبه من النصر ، ولكن

(١) M. Blondel: "L'Action", t. II, Paris, 1937, p. 289-290

هذه المشكلة قد يتيسر حلها عن غير طريق الحرب ، إذا عمد علماء الاقتصاد إلى اتخاذ خطة منظمة من أجل الانتفاع بكل مصادر الثروة فى العالم . فليس من المستحيل أن تسد الثروات الاقتصادية الموجودة فى العالم — إذا أحسن استثمارها — حاجة أولئك الذين يصرخون طالبين عملا يمكن أن يضمن لهم البقاء . ومن جهة أخرى فإن المشكلة السيكولوجية المتعلقة بشعور الرضا عن العمل ، ليست أيضا من المشاكل المستعصية على العلاج . وإنما حسبنا أن نعمل على الاستفادة من التوجيه المهنى والاختبار الفنى ، مع التوسع فى تطبيق مناهج علم النفس الصناعى ، حتى يصبح العمل مصدرا للإنتاج ومبعثا للسرور فى الوقت نفسه .

وإذا كانت الحرب (لما يجىء معها من حاجة ملحة إلى الاستفادة من خدمات كل الأيدى العاملة) قد قضت على شعور الفرد بالدونية فى العمل ، فإن من الواجب أن نعمل على استمرار هذا الشعور إبان السلم أيضاً . عن طريق التنظيم الاجتماعى الذى يشعر معه كل فرد بقيمة العمل الذى يؤديه ، وفائدته هو شخصياً للجماعة . وهكذا لا يشعر الفرد بأنه يعمل لمجرد كسب العيش ، أو لمجرد سد حاجة أسرته ، وإنما يشعر بأنه يعمل لنفسه وللجماعة معاً ، وهذا الشعور من شأنه أن يشعره بقيمته الذاتية فى نظر المجتمع . وهنا يمكننا أن نتعلم درسا قيما من بعض الدول التى تسير على نظام تعاونى فى الإنتاج ، لأن الفرد يشترك فى الإنتاج العام بالقسط الذى يشعره بقيمة عمله ، وقيمته هو شخصيا . ومعنى هذا أننا إذا أردنا أن نجد « معادلا أخلاقياً » للحرب ، فلا بد من أن نوجد إبان السلم ، تلك اللذة التى يجدها الفرد إبان الحرب ، حينما يتعاون مع الآخرين فى سبيل غرض مشترك .

ولكن ماذا عسى أن يكون هذا الغرض إبان السلم ؟ وفى سبيل أى غاية ينبغى أن يتعاون الأفراد فى الظروف العادية ، حتى يقوموا بعمل مشترك ؟ تلك هى المشكلة الكبرى التى لا بد لنا من أن نعرض لها بالبحث ، إذا أردنا أن نجد معادلا أخلاقياً حقيقياً للحرب .

والواقع أن ثمة رسالة كبرى ينبغى أن يضطلع بها الإنسان : فإن عليه أن يعمل على مواصلة عملية التطور ، مع الانتفاع بكل ما لديه من قوى فى سبيل تحسين ذاته ، وإصلاح حالته الروحية والمادية ، وزيادة معرفته وقدرته ، بل من أجل تغيير صفحة الكون ، حتى يصبح الكون مكاناً صالحاً لسكنى المخلوقات البشرية ، أعنى أن من واجبه بالإجمال أن يعمل فى سبيل « التقدم » بأوسع معانيه . ومن الممكن

أن ننظر إلى هذا « التقدم » على أنه معركة « الإنسان » ضد « الطبيعة » . فهو نداء موجه إلى العدوان الإنسانى بأوسع معانيه ، فى صورة إنسانية تنطوى على ضرب من التسامى أو الإعلاء .

وليس من شك فى أن معركة الإنسان ضد الطبيعة ، هى معركة حقيقية بمعنى الكلمة ، بل لعلها أن تكون أكبر معركة يمكن أن يخلم بها الإنسان ؛ وإنها لمعركة هائلة ستظل مستمرة طالما كان ثمة إنسان . فهذه مشاكل العلم والفلسفة والفن مشاكل كثيرة لا سبيل إلى استنفادها ، وهاهوذا العالم نفسه يتيح لنا فرصاً لا نهاية لها ، من أجل استغلال كل ما لدينا من حب للمخاطرة أو رغبة فى سبر أغوار مهارتنا وبراعتنا وقدرتنا . فالمعركة التى نحن بصددها تستلزم صراعا عنيفاً فى جبهات متعددة : يخوض غمارها السياسى الذى تنحصر مهمته فى تنظيم المجتمع ، وعالم الاجتماع الذى يحاول أن يقف على قوانين تطور المجتمع ، والطبيب الذى يصارع المرض ، والعالم الذى يحاول فى معمله أن يفض أسرار الطبيعة ، وأرباب الصناعة والهندسة والزراعة ممن يستغلون المعارف المحصّلة لكى يجعلوا الطبيعة أقدر على مجاوبة حاجاتنا وإشباع رغباتنا ، وعالم النفس الذى يسعى جاهداً فى سبيل أن ينفذ إلى أسرار النفس الإنسانية ، والفنان الذى يشبع فى النفس حاجتها إلى تذوق الجمال ، وغير هؤلاء ممن يتكون من مجموعهم جيش ضخم من المحاربين الإخصائيين ، يفوق فى عدده وتنظيمه سائر المنظمات العسكرية الهائلة .

بيد أن ثمة اعتراضاً قد يثار فى هذا الصدد ، إذ ربما يقال إن هذا بعينه هو ما فعلته الإنسانية منذ بداية الحضارة البشرية . ولكن الواقع أن البشر لم يسيروا فى هذا السبيل على هدًى مثل أعلى واضح . فلم يكن ثمة مثل أعلى ينطبق على الجنس البشرى بأكمله ، ولم يكن ثمة شعور قوى بالتعاون فى « منظمة » إنسانية شاملة تضم شعوب الأرض قاطبة .

والواقع أن جانباً كبيراً من التقدم الإنسانى إنما يرجع إلى جهود أفراد منعزلين كانوا منفرقين هنا وهناك ، ولم يكونوا يعملون إلا فى سبيل غايات فردية خاصة ، أو لإشباع حاجة ذاتية هى رغبة فردية تقوم على حب الاستطلاع . وفضلا عن ذلك فإن كبار رائدى الإنسانية ، كانوا فى معظم الأحوال ، مثاراً للرعب أو موضعاً للاضطهاد من جانب رفقائهم فى المجتمع . ولم يكن ثمة مظهر للتعاون ، إلا إبان الشدة حينما يدعى الجميع لحمل السلاح ، فيحاربون جنباً إلى جنب . ولم تفطن

الإنسانية إلا فى الأزمنة الحديثة إلى أن فى إمكان البشر أجمعين أن يتعاونوا فى سبيل غرض واحد هو « التقدم » ؛ بل حتى الآن كثيراً ما يصعب على البشر أن يفهموا قيمة « التقدم » باعتباره مثلا أعلى يمكن أن يستلهمه الجنس البشرى بأكمله .

بيد أنه قد آن الأوان لأن يحمل كل أفراد الجنس البشرى سلاحهم ، لا لكى يحارب بعضهم البعض الآخر ، بل لكى يتضافروا سوياً ضد العدو المشترك الذى هو هذه الطبيعة الجبارة . وما زالت أمامنا قوى الطبيعة عاتية تهدد حياتنا الإنسانية ، وتحد من قوتنا ، وتفسد علينا أحياناً سعادتنا ، فحسبنا أن نشترك جميعا فى هذه المعركة الهائلة ، معركة « الإنسان » ضد « الكون » ، وهى هذه المعركة العنيفة التى تتطلب الكثير من الجرأة والمخاطرة والبطولة . وإذا كانت الحرب الأخيرة قد أرتنا ضروبا نادرة من الشجاعة والبطولة إن فى البحر أو فى البر أو فى الجو ، لا من المحاربين فقط ، بل من أناس بسطاء عاديين فى سائر أنحاء الأرض ، فربما تلقى عند هؤلاء أيضا القدر الكافى من الشجاعة ، لأن يتخلوا عن تقاليدهم العتيقة التى ظالما دفعتهم إلى مقاتلة إخوتهم فى الإنسانية ، لكى يخطوا خطوة جديدة ، فى سبيل التقدم نحو مرحلة جديدة من التعاون والإخاء . وليس ثمة ما يبرر اليأس من مصير الإنسانية ، فإن الإنتاج الإنسانى الرفيع كفيل بتحقيق ما قد لا يكون فى الحسبان .

زكريا إبراهيم